الفصل الأول

الكتاب المقدس هو مصدر ملكيتنا

عندما حذر داڤيد بن جوريون السلطات البريطانية ـ عن طريق اللورد پيل والبعثة الملكية[1] ـ سنة ١٩٣٦م من أن «الكتاب المقدس هو مصدر الملكية لنا» (Ben Gurion 1970 : 107). كان السياسى الصهيونى الأشهر فى القرن العشرين، والذى صار فيما بعد أول رئيس وزراء إسرائيلى، يقدم تعبيراً حديثًا عن أسطورة أصولية تمامًا من الكتاب المقدس، وهى أسطورة تمثل قلب الصهيونية. فكما جاء فى العهد القديم، كانت مملكة إسرائيل اليهودية القديمة والتى تُدعى أحيانًا إسرائيل القديمة وتسمى أحيانًا مملكة داود وسليمان المتحدة، كانت موجودة من حوالى سنة ١٠٠٠ حتى سنة ٩٢٢ ق. م. ويزعم أنها كانت أقوى دولة والأكثر رخاء بين دول شرق المتوسط فى ذلك الوقت، وتبسط سيادتها من نهر الفرات فى بلاد الشام حتى تخوم مصر (وادى العريش) شمال سيناء.

وتتطابق هذه الحدود مع الوعد الذى يقال إن الرب قد أعطاه لإبراهيم أبى الأنبياء ومسجل فى سفر التكوين، الذى هو الفصل الافتتاحى فى الكتاب المقدس:

«وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكا أبديًا. وأكون إلههم» (تكوين ١٧ ـ ٨).

هذا هو الأساس الذى يقوم عليه المفهوم الجغرافى السيئ للرؤية الصهيونية. **أرض إسرائيل، الصخرة التى تقوم عليها الأيديولوچية الصهيونية**[*]. وهى خليط قوى من

(*) قال شلومو بن عامى آخر وزراء خارجية حزب العمل لعمرو موسى ـ أمام وكالات الأنباء ـ فى القرن الواحد والعشرين: القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة: فأجابه موسى: ولكن عمر إسرائيل=

اليهودية القديمة والقومية الحديثة، التى تحتفى بالوعد الذى أعطى لإبراهيم، وتزعم أن مملكة داود هى تعبيرها السياسى ونموذجها الحديث المانح للشرعية فى حد ذاته.

عند هذه النقطة يحتاج القارئ إلى التنبيه إلى خاصية مفزعة بشأن بن جوريون، وهى خاصية يشترك فيها مع غيره من زعماء الحركة الصهيونية. ذلك أن بن جوريون لا يؤمن بشكل خاص بهذه القصة الواردة فى الكتاب المقدس، أو بأية قصة أخرى بهذا الشأن ولكن ما كان يهمه ـ كما قال ـ هو أن يهوداً كثيرين يصدقونها بالفعل. وكان هذا كافيًا. فلا يهم ما إذا كان الاعتقاد صحيحًا أم لا. إعطاء معنى لهذا النظام العقائدى الغريب، هو من الأعراض العامة المتأصلة للأيديولوچية الصهيونية، هو الذى سوف يشكل أساس النصف الأول من هذا الفصل. وسوف نتأمل حينئذ شيئًا أشد مدعاة للدهشة: إن الصهاينة علماء آثار عظماء. لقد كان البحث عن الآثار نوعًا من الهوس الوطنى، وظلوا على مدى أكثر من مائة سنة يقومون بحفائر فى فلسطين بحثًا عن «إسرائيل القديمة». وفى مناسبات تم الإعلان عن اكتشافها فى تصريحات زائفة مبالغة فى الحماس، ثم لا تلبث أن تنهار ولا تصمد أمام التمحيص العلمى المكثف. ثم حدث فى تسعينيات القرن العشرين، أن بدأ يتضح الإدراك بأنها يمكن ألا تكون موجودة. .

وبعض علماء الآثار الإسرائيليين ذائعى الصيت أدركوا حينئذ أن ما يسميه العلماء أحيانًا «تحول النموذج» قد صار ضرورة. وبعبارة أخرى، كان الإطار المسلَّم به المستخدم فى محاولة تفسير الاكتشافات الأثرية هو نفسه المشكلة. وبشكل صريح، فإن قصص العهد القديم ـ بعيدًا عن تقديم خطوط إرشادية للكشف الأثرى ـ قد برهنت على أنها عراقيل وعقبات.

ويخلص الفصل إلى النظر فى كيفية أن علماء الآثار يتوافقون مع ما يعتبر ثورة عقلية فى التفكير حول فلسطين القديمة، وكيف أنهم وجدوا أنفسهم ـ دونما قصد ـ يتحدون الأسطورة الصهيونية التى هى جوهر الهوية الإسرائيلية الحديثة.

= خمسون سنة فقط. فأجاب شلومو: كل الناس يعرفون أن القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة. فذلك موجود فى الكتاب المقدس. وبعد وفاة ياسر عرفات، ظهر وزير العدل الإسرائيلى على شاشة الـ C.N.N ليقول: لا يمكن دفن الإرهابى عرفات فى الأرض التى دُفن فيها ملوك بنى إسرائيل ـ المترجم.

بن جوريون: رائد صهيوني..

كان داڤيد بن جوريون، المولود في بلونسك، پولندا، سنة ١٨٨٦م، جزءاً من جيل من الشباب اليهود في الإمبراطورية الروسية الذين صدمتهم تجاوزات المذابح، وأعمال الشغب المعادية لليهود، والهجمات القاتلة على الجماعات اليهودية. (هذه الفترة بما فيها نشاط الشاب بن جوريون في پولندا، معروضة بالتفصيل في الفصل السادس) وصار بعض هؤلاء الشباب اليهود أعضاء في الحركة الصهيونية، وقليل منهم، كان بن جوريون من بينهم، ذهبوا للعيش في فلسطين. وكانت هناك بالفعل مستوطنات زراعية صهيونية قليلة في فلسطين التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية (نوقشت في الفصل الخامس). **وعند وصول بن جوريون إلى فلسطين سنة ١٩٠٦م ذهب ليبحث عن المستوطنات الزراعية التي كان يصفها بالفعل بأنها «جمهوريات عبرية»** (Teveth 1987: 40) . **في ذلك الوقت كان هناك خمسة وخمسون ألف يهودي في فلسطين من إجمالي عدد السكان البالغ سبعمائة ألف.** وكانت هناك أقلية صغيرة من اليهود تعمل في المستوطنات. وسرعان ما اكتشف بن جوريون أنه على الرغم من أن هذه المستوطنات تم بناؤها على أرض تم شراؤها من ملاك الأرض العرب الغائبين، فإن الفلاحين الغاضبين لأسباب منطقية والذين تم طردهم من الأرض قد عادوا لشن غارات مسلحة. وفي وقت باكر منذ سنة ١٩٠٩م نجد بن جوريون، وبيده البندقية، مستعداً للدفاع عن مستوطنة زراعية في الجليل(*) (Teveth 1978: 45) .

وقد ترك بن جوريون بصمته على السياسات الصهيونية في فلسطين مباشرة. فقد كان في المؤتمر التأسيسي لبوال زيون (أي حزب العمال العبرانيين الديمقراطي الاشتراكي في فلسطين، والذي ناقشت سياساته في الفصل السادس). وفي سنة ١٩٠٦، تم انتخابه عضواً في اللجنة المركزية للحزب (Teveth 1987: 45) وسوف يواصل حزب العمال مسيرته بحيث يصير القوة الحاسمة في السياسات الصهيونية في معظم فترات القرن العشرين، وقيض لبن جوريون أن يصبح الأكثر نجاحاً وكاريزمية بين زعمائه.

(*) كانت المقاومة الفلسطينية الباكرة ضد النشاط الاستيطاني الصهيوني مشروعة في ضوء ممارسات عصابات تجريد الفلاحين من أراضيهم بمساعدة البنوك الغربية، وهي سياسة واصلتها سلطات الانتداب البريطاني فيما بعد ـ المترجم.

.. وصانع أساطير

فى هذا الفصل نركز اهتمامنا على محاولة فهم نظام المعتقدات لدى بن جوريون. وهو يقدم رؤية ثاقبة لا نظير لها فى داخل صناعة الأساطير الصهيونية. ويشرح بن جوريون بنفسه هذه المسألة على نحو جيد للغاية:

«ليس مهمًا ما إذا كانت القصة تسجيلاً لحدث أم لا. ولكن المهم هو أن هذا هو ما يعتقده اليهود، من فترة المعبد الأول» (Pearlman 1965: 227).

وهناك كاتب اسمه بيزهار، صار فيما بعد جزءاً من هيئة مكتب بن جوريون الداخلية، قد حاول مؤخراً أن يدافع عن الزعيم الصهيونى ضد الاتهام، بأنه من خلال خلط الحقيقة (بالاعتقاد بالحقيقة) كان يعتمد التلاعب بالحقيقة لحساب تشكيل الأساطير؛ لكى تناسب الذرائع السياسية للمشروع الصهيونى. وباختصار يحاول بيزهار لى الحقائق فيما بين الأسطورة والحقيقة:

«إن الأسطورة ليست أقل من التاريخ من حيث كونها حقيقة، ولكنها حقيقة إضافية، حقيقة مختلفة، حقيقة موجودة بإزاء الحقيقة، حقيقة إنسانية غير موضوعية، بيد أنها حقيقة تشق طريقها صوب الحقيقة التاريخية» (Wistrich and Ohana 1895: 61).

ويبدو هذا نوعًا من الكتابة الحاذقة، وربما حتى الشاملة العميقة، بيد أنها كتابة معيبة بشكل عميق. إنها لحقيقة أنه بإقناع الناس بالعمل، وبالعمل بشكل عنيف إذا دعت الضرورة، استجابة لأسطورة ما، يمكن خلق حقيقة تاريخية. بيد أن هذا لا يعطى مصداقية للأسطورة بحقن الحقيقة داخلها بشكل ما بعد حدوث الحدث. وعلى أية حال، كانت هذه هى لعبة بن جوريون. إذ إن الاعتقاد المكثف فى الأسطورة جعلها حقيقة، أو على الأقل لها ما للحقيقة من صلاحية. وهذه ديماجوجية (دهماوية)، قادت بن جوريون فى أوائل ستينيات القرن العشرين إلى السقوط ومعه بعض من أبرز مفكرى إسرائيل العلمانيين و الدينيين. وكان السبب فى ذلك ما يعرف باسم فضيحة لافون(*).

(*) فضيحة لافون هى عملية قامت بها المخابرات الإسرائيلية لضرب المصالح الأمريكية والبريطانية فى مصر بهدف الإيقاع بين حكومة الثورة وأمريكا وبريطانيا، فى وقت لم تكن «حكومة الثورة» قد بلورت اتجاهات سياساتها الخارجية بعد. وقد تم الكشف عن هذه العملية بالصدفة فى إحدى دور السينما بالإسكندرية فى منتصف خمسينيات القرن العشرين ـ المترجم.

وما يهمنا هنا ليس فضيحة لافون فى حد ذاتها[٢]، وإنما الطريقة غير المتوقعة التى وضعت نزاهة بن جوريون موضع تساول، ولكنها كشفت أيضًا عن هشاشة الخصائص الأيديولوچية للدولة الإسرائيلية. وصدمت الفضيحة إسرائيل وهزتها.

«مع الخلاف العاصف الذى أوهن أساس الدولة الفتية، وعرض بن جوريون ولاون للعناء الخاص والعام... وأخضع الساحة السياسية لفوضى كاملة» (Cilbert 1998: 296-7)[٣].

ثم واجه بن جوريون عملية تصفية حسابات طويلة مع كثير من أشد مفكرى إسرائيل ليبرالية.

بن جوريون والمسيح المنتظر

كان أحد أكثر استخدامات بن جوريون إثارة لصناعة الأساطير، هو استخدام كان لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى تعذيب منتقديه بشدة، هو لعبة على موضوع المسيح المنتظر لدى اليهود. فعند الوهلة الأولى ربما يبدو هذا أمرًا محالاً. فبغض النظر عن أى شيء، أنكر بن جوريون مركزية الدين كقوة أصيلة فى القومية اليهودية الحديثة (Keren 1983: 65). وكان مؤمنًا تمامًا بالعلم والعقلانية. وعلى أية حال، لم يكن هناك شيء بهذا القدر من الاستقامة لدى بن جوريون.

وقد وصف بأنه «موحد وقح»، ولم يوصف بأنه ملحد[٤]. ويبدو أن هذا يعنى أنه كان يؤمن بالقوة الروحية المعززة للعقل البشرى. «الاعتقاد بقدرة العقل البشرى ينبع من ارتباطه بالكون الذى يستكشفه» (Keren 1983: 28)، وأتاح له بابًا خفيًا يعاود منه الدخول إلى الدين عندما يناسبه، وكذلك المرونة فى إعادة تفسير الدين بحيث يناسب الحاجات السياسية الحديثة ومبررها الأيديولوچى.

وفى كل الأحوال، أتاح له إيمانه التوحيدى أن تكون له تطلعاته المسيحانية الخاصة، وهو أمر من الواضح أنه متاح للعباقرة من البشر، ويبدو أنه كان يحسب نفسه واحدًا منهم. فقد كتب «الرب أو الطبيعة هو الذى يمنح العبقرى مواهب سامية، ليس بدافع حبه له، ولكن بدافع من الرغبة فى أن يرزق العالم بمخلوقات سامية... إنه يخلق وسيطًا..» (Teveth 1987: 10). لقد رأى نفسه هذا الوسيط، وغالبًا ما استخدم

عبارة «هازون مشيحى» أى «الرؤية المسيحانية» (Wistrich and Ohana 1995: 62) فيما يتعلق بالحركة القومية اليهودية الحديثة فى فلسطين. وكانت حجته أن هناك مكونات ثلاثة للقومية اليهودية الحديثة: رابطة الشعب مع أرض الوطن، واللغة العبرية، وفوق هذا وذاك الرابطة المسيحانية بالخلاص (Keren 1983: 65).

ماذا كان معنى رؤية بن جوريون المسيحانية والرابطة التى تجمعها بالخلاص؟ وفقًا لكل من اليهودية والمسيحية فإن الرب سوف يرسل رسولاً - وسيطًا يمثله - هو المسيح المنتظر إلى الأرض لكى يحول المجتمع الإنسانى ويخلصه من ذنوبه وخطاياه. والخلاص يعنى «التجديد أو الميلاد المتجدد» وهو يضرب بجذوره فى رؤيا الرب من أجل البشر، وفى اليهودية ما يزال المسيح منتظرًا لم يأت، أما فى المسيحية، فإن «يسوع المسيح»، ابن الرب، كان هو المسيح، وسوف يعود.

وأحد أقسى منتقدى بن جوريون، الكاتب إفراهام آفى - هاى، جادل بأن بن جوريون، قد جرد مفهوم المسيح المنتظر من تجسيده فى شخص؛ وهو مفهوم مشترك بين اليهودية والمسيحية. وبدلاً من شخص المسيح، جعل بن جوريون الصهيونية حركة مسيحانية. ومن ثم فإن خلاص الجنس البشرى ينبغى أن يسبقه خلاص الشعب اليهودى، وإعادتهم إلى أرضهم (Keren 1983: 65).

وقد تحدث بن جوريون عن تأسيس مجتمع نموذجى سوف يصير «نورًا بين الأمم» (مقتبسًا الموضوع من النبى إشعيا فى العهد القديم) «ومن خلاله سوف يأتى الخلاص الكونى، حكم التقوى وأخوة البشر واستئصال الشر» (Keren 1983: 65). وعبارة بن جوريون هنا تقرأ كما لو كانت اقتباسًا حقيقيًا من إشعيا، ولكن الحقيقة أن ما يفعله هو استغلال لغة الكتاب المقدس لنفسه ولكى يبرر اختلاق دولة إسرائيل؛ وهى وسيلة شائعة الاستخدام بين الصهاينة الذين يصفون أنفسهم بأنهم من غير المؤمنين.

وغالبًا ما يضفر بن جوريون ملاحظات مثل هذه مع إشارات إلى اليهود الذين ينجزون المهمة النبيلة المتمثلة فى «استيطان أرض الوطن القديم» باعتبارها شرطًا ضروريًا للخلاص الكونى للجميع على أساس حقيقة أنهم كانوا، أو على الأقل يمكنهم أن يكونوا «الشعب المختار». ولا يمكن للمرء سوى أن يعجب بجراءة الرجل

الصريحة . فقد اغتصب بن جوريون المسيحية مثلما اغتصب لنفسه اليهودية . لقد عاد الشعب اليهودى لكى يستوطن الأرض القديمة بعد ألفى سنة ، وسوف يكون نوعًا من المسيح القومى ، يشع نوراً على جميع الأمم الأخرى فى العالم على حد زعمه .

بيد أن النظرة الساخرة سرعان ما تتلاشى عندما ندرك كيف استطاع بن جوريون بسهولة أن يجعل مسيحانيته السياسية تنزلق لكى تدعم مغامرات إسرائيل السياسية والعسكرية . إذ إن الشعب المنتظر للخلاص كان بوسعه أن يتابع أهدافًا عدوانية وتوسعية قومية فى فلسطين وما وراءها ، بصورة مشروعة بالنسبة لهم ، لأنهم وحدهم كانوا المنوطين بالاستجابة لما جاء فى نص للعهد القديم .

وهكذا تذكر بن جوريون النبى موسى أثناء أزمة السويس سنة ١٩٥٦م ، وهى المغامرة العسكرية الإمبريالية الصاخبة ، عندما انضمت إسرائيل إلى انجلترا وفرنسا فى محاولة إسقاط زعيم مصر ، جمال عبد الناصر ، الذى كان قد أمم قناة السويس . ووفقًا لكلام بن جوريون ، ربما كان الآلاف من الجنود الإسرائيليين المشتبكين فى المعركة بصحراء سيناء بين مصر وإسرائيل مدفوعين بالذكريات التى تحكى عن كيفية قيادة موسى لأسلافهم إلى جبل الطور بسيناء حيث تلقى الوصايا العشر من الرب :

«لم تكن هذه مجرد معركة. ذلك أن الهالة التى تحيط بسيناء والتجارب العميقة والصوفية المرتبطة بذلك الاسم على مدى آلاف السنين، كانت تشع على رؤوس جنودنا كما لو كان آباؤهم حاضرين فى حدث جبل سيناء» (Keren 1983: 69) .

كانت الاقتباسات من الكتاب المقدس بمثابة التوابل التى تضفى النكهة على جميع خطب بن جوريون . وكانت عبارات الأنبياء تدخل فى اللغة السياسية ، كما أن أبطاله المفضلين فى الكتاب المقدس ، حتى عندما يخالفون الرب ، كانوا يشيرون فى كل اتجاه لمواقفه المعاصرة . وفى إحدى المناسبات امتدح بن جوريون چيروبوم الثانى ، أحد ملوك إسرائيل القديمة ، الذى «فعل شراً أمام عين الرب» ، ولكنه مع هذا وسع مملكته بالاستيلاء على دمشق (Wistrich and Ohana 1995: 69) .

التجديف:
الديانة اليهودية عشيقة الحكومة العلمانية

هناك اثنان من الفلاسفة الدينيين اليهود المشهورين، مارتن بوبر ويشاياهو ليبوفيتز، يسميان أنفسهما من الصهاينة، كانا مع ذلك مفزوعين من الطريقة التى رأيا فيها بن جوريون يتلاعب بالديانة اليهودية لأهداف سياسية ضيقة.

فقد خطف بن جوريون المفهوم الروحى لصهيون، حسب حجة بوبر، وهو ما لا ينبغى أن يكون له مكان فى سياسات القوة الوطنية:

«صهيون ينطوى على ذكرى، وطلب، ومهمة. صهيون هو حجر أساس القاعدة، والأساس الذى يقوم عليه صرح المسيحانية والخلاص للبشرية.. صهيون فى شكله الحديث كان «شبه صهيونى» ولم يكن «صهيونية حقيقية».. وشبه الصهيونية ليس سوى أحد الأشكال المبتذلة للقومية فى أيامنا، شكل لا يعترف بأية سلطة سوى المصالح الوطنية المتخيلة» (Keren 1983: 77).

ويجادل بوبر هنا أن دولة بن جوريون الوطنية قد حلت محل سلطة الرب.

وفى إحدى النقاط، اتهم بوبر بن جوريون بالكفر والتجديف. وحجته أن اتجاه بن جوريون إلى العلمانية «يحول بين الناس وصوت الرب الحى» (Keren 1983: 78).

ولا يمكن لبن جوريون أن يستبعد بوبر باعتباره صاحب عقلية متحجرة. أولاً، لأن بوبر كان يحظى باحترام كبير بين المؤمنين وغير المؤمنين على السواء، وثانيًا، أن بوبر كان مدركًا تمامًا للمعضلات التى تواجه السياسات اليهودية فى فلسطين الحديثة وبالإصرار على أن دولة يهودية من الطراز الذى كان بن جوريون يدافع عنه لم تكن مقبولة وفق تعاليم الديانة اليهودية الحقة، كان بوبر يعبر عن النوع الإنسانى للأخلاق اليهودية التى يؤمن بها. [كان على بوبر ـ كما يذكر إدوارد سعيد المفكر الفلسطينى الأبرز ـ أن يكون له موقف حول نوع الدولة السياسية الحديثة التى يجب أن تنشأ فى فلسطين. وكان بوبر وعدد آخر من اليهود المؤمنين بالفلسفة الإنسانية، يتبنون فكرة دولة واحدة لشعبين (said200:314) يستطيع فيها كل من المجتمع العربى والمجتمع اليهودى أن يتشاركا السلطة فى ظل دستور واحد].

كان بوبر مفكراً سياسيًا أكثر حداثة، ومن المؤكد أنه كان صاحب رؤى عالمية أوسع كثيراً. وقد صار هذا واضحًا عندما تشاجر الرجلان حول محاكمة أدولف أيخمان النازى وعضو قوات العاصفة، والذى كان متورطًا بعمق فى الهولوكوست وقبض عليه عملاء إسرائيليون فى الأرجنتين سنة ١٩٦٠م، وتمت محاكمته فى إسرائيل سنة ١٩٦١م. فقد كان بوبر يريد محاكمة أيخمان فى محاكمة دولية؛ لأن جرائمه كانت جرائم ضد الجنس البشرى بأسره. وأصر بن جوريون على أن المحكمة يجب أن تعقد فى أسرائيل كوسيلة لدعم شرعية الدولة اليهودية.

كان يشياهو ليبوفيتز، وهو فيلسوف دينى وعالم، أيضا حساسًا تجاه استغلال بن جوريون للمسيحانية السياسية. وقد أغضبه على نحو خاص تبرير بن جوريون المستند إلى الكتاب المقدس، لما أسماه ليبوفيتز «الحماسة الزائدة فى مقابلة الشر بالشر» (keren 1983; 82) عندما قامت وحدة من الجيش الإسرائيلى، يقودها آريل شارون، بقتل خمسين من المدنيين العرب الفلسطينيين بقرية قبيه. ولم يخش ليبوفيتز من استخدام لغة قوية. وأدان تبريرات أفعال الدولة على أساس من المبادئ الدينية باعتبارها «متاجرة بعرض الديانة اليهودية (البغاء) لصالح نزعة آكل لحوم البشر الوطنية والشغف بالسلطة»(keren 1983:83). واتهم بن جوريون بأنه يبقى الديانة فى وضع «عشيقة الحكومة العلمانية»، وعرف دولة إسرائيل تحت حكم بن جوريون بأنها «ولد علمانى مزعج شاع عنه أنه متدين» (keren 1983:84).

وتحدى ليبوفيتز بن جوريون بشكل محدد حول مسألة «قدسية الأرض»، أى استغلال فكرة «القدسية» بطريقة «لم تكن مقدرة لها، مع كل ما ينطوى عليه هذا الاستغلال المشوش من خطر» (keren 1983:83).

بن جوريون يسمى العرب «مدمرى» الأرض المقدسة

لم يكتف بن جوريون بزعم أن «أرض إسرائيل» مقدسة، ولكنه كان يعتقد أيضًا أن العرب قد دنسوها بشكل ما. فبالنسبة لبن جوريون هى «الأرض التى ستتجمع فيها كل الثقافات ومنها سوف تظهر عبقرية البشر النهائية، لكى تنشر حكمها على العالم

بأسره»، ولكن بشرط واحد- أن يتحكم فى الأرض «أبناؤها»؛ لأنه إذا حدث مرة أخرى أن توقف بنو إسرائيل عن سكنى الأرض، فإن هذا سيكون «فاجعة الحياة» وستتحول إلى كومة من الخرَب. والعرب هم السبب فى هذا؛ لأنهم ـ كما يزعم بن جوريون ـ تصرفوا طوال تاريخ أرض إسرائيل باعتبارهم مخربين(Wistrich and Ohama 1995:75).

وقد وصف إسحاق دويتشر، وهو أحد أعظم الكتاب اليهود الاشتراكيين، بن جوريون بأنه «روح شريرة للشوفينية الإسرائيلية» (Deuts cher 1968:142)

بل إن بن جوريون زعم أحيانًا بشكل يدعو إلى السخرية، أنه حتى وصول العبرانيين الجدد، كانت الأرض «جرداء» على مدى ألفى سنة (Wistrich and Ohana 1995:75).

وكانت هذه الفكرة متجذرة تماما فى الأساطير الصهيونية منذ نشأة أوائل المستوطنات فى أواخر القرن التاسع عشر. وفى أحد خطاباته الأولى من إسرائيل سنة ١٩٠٦م، كتب بن جوريون عن «الأبخرة العفنة التى تفوح من الأرض عندما يتم حرثها للمرة الأولى منذ ألفى سنة» (Wistrich and Ohana 1995:76).

ومن الواضح أن الصهيونيين الأوائل كانوا يعتقدون أنه فيما بين زمن تدمير المعبد اليهودى الثانى فى القدس على أيدى الجيش الرومانى سنة ٧٠ ميلادية والاستيطان الصهيونى الجديد، كانت الأرض قد صارت قشرة صخرية تجمعت تحتها الغازات.

كان هذا هو نمط الخطاب الذى صاحب الأسطورة الصهيونية المتجذرة والقائلة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». وهذه الأساطير هى مواضيع فصول هذا الكتاب.

ففى الفصل الخامس سوف يكتشف القارئ أن هناك زراعة ناجحة حققها الفلاح العربى على أرض فلسطين التى اختارها الصهاينة الأوائل للاستيطان أواخر القرن التاسع عشر. وهنا تكون عدم أمانة بن جوريون وقحة وصفيقة بشكل خاص. وكما لاحظنا فى بداية هذا الفصل، كانت لديه تجربة مباشرة مع تلك المستوطنات الصهيونية الباكرة، التى تم شراؤها من الملاك العرب الغائبين. بل كان عليه أن يسلح نفسه للدفاع عن إحدى المستوطنات ضد الفلاحين العرب الحانقين بسبب طردهم وتدمير حياتهم، بعد أن ظلوا يعملون ويعيشون على هذه الأرض أجيالاً وراء أجيال.

الديماجوجية (الدهماوية)
بن جوريون يعيد تحرير الكتاب المقدس

في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٦٠م دعا بن جوريون إلى مؤتمر صحفي في تل أبيب.

ووصل الصحفيون المحليون والأجانب، والموظفون العسكريون والمدنيون، والكُتاب والفنانون، وأعضاء من عائلته، وغيرهم من البارزين يحملون نُسخًا من الكتاب المقدس في حجم الجيب. وذكرت صحيفة «الچيروسالم بوست» الحادث تحت عنوان رئيسي «بن جوريون يقدم روايته لقصة خروج اليهود من مصر». ووصفت كيف تحدى رئيس الوزراء رؤية الكتاب المقدس للخروج، وزعمه أن أقلية صغيرة فقط من اليهود قامت بالرحلة من مصر، وأن الغالبية العظمى من بني إسرائيل لم تذهب إلى مصر أساسًا، والحقيقة أن نقاد الكتاب المقدس الجادين كانوا قد تطرقوا لهذه النقطة لسنوات، ولكن بن جوريون زعم أن مصدر الإلهام في هذه النظرة الثاقبة كانت حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨م ونماذج الاستيطان في إسرائيل الحديثة (keren 1983:102). وهو أمر يغري على استنتاج أنه كان يتعلق بشكل يدعو للسخرية بما سوف يظهر ببطء على أنه اتفاق بين الباحثين. ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت الأحداث الثورية بعد سنة ١٩٤٨م هي التي توفر النظرات المتأملة الجديدة في التاريخ القديم.

وبطبيعة الحال، ثار جدل كبير، وكان دائما يناسب بن جوريون؛ لأن مثل هذه المجادلات كانت تعزز سلطة الكتاب المقدس باعتباره النقطة المرجعية لتوجيه البلاد.

ولم يتأثر الباحثون المتخصصون في الكتاب المقدس. بل إن أكبر منتقديه فعالية كان باحثًا في الكتاب المقدس من الجناح اليميني هو إسرائيل إلداد. وقد اتهم إلداد بن جوريون بالمبالغة والإثارة الإعلامية المثيرة وإساءة استغلال السلطة السياسية. وقد قارن إلداد الدعاية التي صاحبت الكشف الأثري عن لفافات البحر الميت بالطريقة التي استغل بها بن جوريون وسائل الإعلام للدعاية «لاكتشافه» عن خروج اليهود من مصر. وكانت حجته أن الحفريات الأثرية كشفت عن مكتشفات مادية، على حين أن المؤتمر

الصحفى الذي عقده بن جوريون لم يتضمن سوى فرضيات . ويجب أن يتم تحقيق الفرضيات تحقيقًا دقيقًا بدلاً من طرحها على العامة . وكون أن بن جوريون هو رئيس وزراء البلاد جعل مثل هذا الحرص أكثر حيوية .

وكما أوضح إلداد، وكثير غيره، كان هناك اختلاف كبير بين رجل الدولة والباحث . فبالنسبة لرجل الدولة المنشغل بالسياسات الرمزية، فإن الناقل قد يكون على نفس درجة أهمية الرسالة، وبالنسبة للباحث فإن أى مجال للتعبير عن الرسالة سوف يؤدى إلى التشويش . إذ إن الباحث يعمل بمفرده، ويتغذى على النقد الدقيق، كما أنه محاط بجمهور صغير نسبيًا . أما رجل الدولة فيتحدث إلى جماهير غفيرة، غير قادرة على أن تستمتع بالقدر الضرورى من الشك، وهى تأخذ سلطته أمرًا مسلمًا به . ولا شك أن مثل هذه التأثيرات قادرة على تحديد نوعية التقييم التى تخضع لها المعرفة أو المعلومة . (keren 1983:117) .

وقد ميز إلداد بين ثلاث رؤى للموضوع . أولاها، هى أن هناك مؤمنًا يتقبل القصة، كما هى، لأنها فى كتاب الرب . وثانيتها، هناك العالم الذى يمتلك المقاربة المعاكسة بالضبط، فلا شىء فى الكتاب المقدس ينبغى أن يكون فوق الشك، سواء كانت أحداثًا خارقة للطبيعة أو «طبيعية» . والثالثة هناك المفسِّر الذى يدرس الكتاب المقدس لا لذاته وإنما باعتباره وسيلة لاستخراج الدروس المعاصرة أو العالمية . وكل المقاربات الثلاث مشروعة، بشرط أن يبقى التمايز بينها، وكانت شكوى إلداد مؤداها أن بن جوريون قد خلط بعضها ببعض (keren 1983:114) .

لقد مسَّ إلداد الوتر الحساس لدى الصهيونية . ففى النهاية لا يمكن للعلم والدين أن يتوافقا . وداخل الصهيونية يصبح التوتر بين الاثنين غير محتمل عندما يكون التاريخ اليهودى خاضعًا للمحاجاة القائمة على قواعد البرهنة والبحث العلمى، أى عندما يكون هناك التزام صحيح بمستويات ومعايير البحث العلمى [٥] .

***

بحثا عن «إسرائيل القديمة»

نحن الآن بحاجة إلى أن نفصل بين عوامل ثلاثة: إساءة استخدام الصهيونية للكتاب المقدس وقصصه، وقصص الكتاب المقدس نفسها، والفترة التاريخية التي يزعمون أن الكتاب المقدس يتحدث عنها. وسوف يأخذنا هذا إلى المجادلة وبشكل حرفي عند الحافة الحاسمة للدراسات الأثرية الإسرائيلية. ولكن دعنا أولاً نحاول أن نضع الخلفية مع استخدام «إسرائيل القديمة» كبؤرة البحث بالنسبة لنا. وأمامنا صعوبة مباشرة لأن هناك عدداً من «إسرائيل القديمة» في الكتاب المقدس. وسوف نركز على ما يسمى «مملكة داود وسليمان المتحدة» من حوالي سنة ١٠٠٠ إلى سنة ٩٢٢ ق.م تقريبًا؛ لأن هذه هي «إسرائيل القديمة» التي تبنى عليها الصهيونية أشد مزاعمها فجاجة.

ربما يتذكر القراء الذين لهم أي قدر من المعرفة بالكتاب المقدس، أن الأرض في تلك الفترة كان لها اسم آخر هو «كنعان». وأحد الملامح المدهشة التي تظهر بغتة دائمًا عندما ينشغل البحث التاريخي والأثري الجاد بقصص الكتاب المقدس، يتمثل في أن الآثار التي تم اكتشافها هي كنعانية أكثر من كونها «إسرائيلية». والحقيقة أن الآثار «الإسرائيلية» لم تكتشف أبدًا من تلك الفترة، ولكن ربما لا يكون ذلك مهمًا. وعلى أية حال، فإن قصص الكتاب المقدس تحمل صوراً قوية لدرجة أنه حتى أكثر الناس شكًا، يفترض أنه لا بد أن تكون هناك على الأقل بذور من الصدق التاريخي.

ومهما يكن من أمر، ألايعرف أي تلميذ في المدرسة أن داود (الذي سيصير الملك الإسرائيلي «للمملكة المتحدة») حينما كان محاربًا قد هزم جالوت الفلسطيني بضربة مقلاع؟ أليس هذا فعلاً من أعظم أفعال الشجاعة الفردية ـ وأكثرها شهرة بالتأكيد ـ وصلت إلينا من العالم القديم؟ إنها دعوة من الكتاب المقدس بأننا لا يمكن أن نرفض أن نُسلِّم بتفوق داود الإسرائيلي الأخلاقي والروحي على الفلسطيني جالوت. إنها قصة خرافية محفورة بعمق في مخيلة الحضارة الغربية، وتجسدت على نحو برّاق في النهضة

الأوروبية فى تمثال «داود» الذي نحته مايكل أنجلو، واللوحة التى رسمها الرسام رامبرانت المذهلة، داود بقدم رأس جوليات إلى الملك شاءول .

ومع هذا، فإن الصهيونية الحديثة قد وجدت صعوبة متصاعدة فى الدفاع عن داود الكتاب المقدس باعتباره شخصية تاريخية حقيقية، مع استيعاب فى الوقت نفسه دلالات التحليل الجاد والبحث الأثرى الرصين حول الكتاب المقدس .

فى ثمانينيات القرن العشرين، قام سياسى إسرائيلى بارز، هو أبا إيبان، الذى اكتسب سمعة باعتباره باحثًا فذًا فى دراسات الكتاب المقدس، بتقديم فيلم تليفزيونى وثائقى بعنوان: **الميراث، الحضارة واليهود**. كانت السلسلة ترمى إلى أن تظهر تاريخ اليهود من زمن الكتاب المقدس حتى اليوم الحاضر، وصحبها كتاب يحوى صوراً جميلة. وما كان مثيراً فى هذه السلسلة هى التنازلات التى كان على إيبان أن يقدمها مراراً وتكراراً أمام البحث النقدى الجاد للكتاب المقدس والكشوف الأثرية التى قوضت اعتقاداته الصهيونية حول الكتاب المقدس. وقد أزيح النقاب عن هذا بشكل تام عندما جاء إلى القصة الخرافية عن داود وجوليات . وحسبما أوضح هو «**عاشت الخصومة التى يحملها الكتاب المقدس تجاه الفلسطينيين بقيت فى المعنى الحديث للمصطلح: فكلمة فلسطينى تعنى شخصًا جاهلاً، خارجًا على القانون، يتباهى بعدائه للثقافة**». (Eban1984:45).

كما اعترف فى الجملة التالية مباشرة «**إن الحقيقة أنه خارج ميادين اللاهوت والأخلاق، فإن إنجازات الفلسطينيين الثقافية كانت متفوقة بشكل لافت للنظر على إنجازات الإسرائيليين**». وثمة صورة ملونة مدهشة حقًا تعود بنا إلى الموضوع، وهى صورة لإناء زهور مزين بشكل رائع تحتها تعريف بالصورة نصه: «لم يكن الفلسطينيون برابرة وهمجًا وإنما كانوا حرفيين مهرة» (Eban1984:40) .

كيف عرف، على الأقل فى اللاهوت والأخلاق، أن الإسرائيليين كانوا أكثر تفوقًا من الفلسطينيين؟ والإجابة هى أنه لا يعرف. وهذا ما يسميه نقاد الكتاب المقدس مثالاً على التحرير، أي الإعداد للنشر. فقد كتبت قصص الكتاب المقدس بعد وقت طويل، بحيث إن أية مزاعم عن الجدارة المتعلقة بنظم الإيمان لدى الفلسطينيين والإسرائيليين فى ذلك الوقت إنما هى مزاعم مستحيل أن تصمد أمام النقد. ولكى نستخدم مفهومًا

يفضله نقاد الكتاب المقدس كثيرًا، فإن القصص يمكن أن تكون مزيفة (أبوكريفا) بعبارة أخرى، فالكتاب المقدس نفسه يثير كثيرًا من الصعوبات حول الحياة الدينية والتاريخية لكل من داود وسليمان.

الفوضى والخلط فى الكتاب المقدس حول داود وسليمان

من ناحية هناك التأثير الطاغى لداود: إذ إن التراث «المسيحانى» يبدأ به. فقد كان الأنبياء العبرانيون اللاحقون متأثرين جدًا بما بدا أنه مباركة خاصة من الرب على داود بحيث إنهم تخيلوا مملكة ستقوم فى المستقبل، مملكة مباركة، أو «أو ماشيحانية» وهى الكلمة العبرية المقابلة لكلمة مسيح (Eban1984:47). فبعد حوالى ١٠٠٠ سنة، كان المزمور الثالث والعشرون يتحدث عن التراث التوحيدى والمسيحانى، ويحفظها لكل من اليهودية والمسيحية:

«الرب راعىَّ فلستُ أحتاجُ إلى شىء. فى مراع خضراء يُربضنى. وإلى مياه هادئة يقودنى. يُنعش نفسى ويُرشدنى إلى طرق البر إكرامًا لاسمه. حتى إذا اجتزتُ وادى ظلال الموت، لا أخافُ سوءًا لأنك ترافقنى. عصاك وعكازك هما يشدّدان عزيمتى. تَبسُط أمامى مأدبة على مرأى من أعدائى. مسحت بالزيت رأسى، وأفضت كأسى. إنما خير ورحمة يتبعاننى طوال حياتى، ويكون بيت الرب مسكنًا لى مدى الأيام»(*).

ومن ناحية أخرى، تورط داود فى واحدة من أكبر الفضائح التى تحدث عنها الكتاب المقدس، بحيث عبر عن احتقاره لأى نظام لاهوتى أو أخلاقى فى تعامله مع زعماء القبائل المحليين، العدو منهم والصديق على السواء. فقد ضاجع بتشبع وحملت منه، بينما كان زوجها أوريا الحيثى بعيدًا يحارب العمونيين لحساب داود. وتم إرسال أوريا إلى «وجه الحرب الشديدة» حيث تركه رفاقه، بناء على أوامر داود، لكى يموت على أيدى الأعداء (صموئيل الثانى، ١١ : ١٥) (Eban 1984:49)(**).

(*) المزمور الثالث والعشرون من مزامير داود، . . . وقد أوردت النص كاملاً؛ لأن المؤلف اقتبسه منقوصًا عن كتاب أبا إيبان (Eban 1984:48) - المترجم.

(**) **خطيئة داود وخداعه**: وفى ربيع العام التالى، فى الموسم الذى اعتاد فيه الملوك الخروج للحرب، أرسل داود قائد جيشه يوآب على رأس قواته حيث هاجموا بنى عمّون وقهروهم، وحاصروا مدينة ربّة، أمّا داود فمكث فى أورشليم. وفى إحدى الأمسيات نهض داود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره، فشاهد امرأة ذات جمال أخّاذ تستحم. فأرسل داود من يتحرى عنها. فأبلغه أحدهم: =

ووفقًا للباحثة المعاصرة المتخصصة فى الكتاب المقدس، كارين آرمسترونج، التى تحظى باحترام عظيم، فإن سلوك داود كان انتهاكًا حتى للمعايير المعاصرة للعدالة «الوثنية»، دعك من معايير العدالة اليهودية اللاحقة (Armstrong 1996,40) (٦).

ومثل أبا إيبان، نجد الكاتب پول جونسون، فى كتابه الذى يحظى بشعبية واسعة History of the jews، متحمسًا بشكل يائس للوقوف إلى جانب قصص الكتاب المقدس، مع إن قراءته للكتاب المقدس قد ألقت مسحة من الشك على أصول داود الإسرائيلية: «كان فى الأصل راعيًا ينحدر من نسل روث المؤابى المتواضع الأخّاذ...» (Johnson 1993:55).

بل إن المشكلة أكبر مع سليمان. فإنه مثل داود مشكوك فى نسبه؛ لأنه كان هو الابن الثانى لداود من بثشبع. وطور سليمان أكبر إمبراطورية مدهشة، متخصصًا فى زواج المصلحة مع الوثنيات. وحسبما يخبرنا إيبان:

= «هذه بثشبع بنت أليعام زوجة أوريا الحثّى، فبعث داود يستدعيها. فأقبلت إليه وضاجعها إذ كانت قد تطهرت من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود بذلك. فوجه داود إلى يُوآب قائلا: «أرسل إلىَّ أوريّا الحثّى». فبعث به يُوآب إلى داود. وحين مثَل لدى داود استفسر منه عن سلامة يُوآب والجيش وعن أنباء الحرب. ثم قال داود لأُوريّا: «امض إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريّا من بيت الملك، وأرسل له هديّة إلى بيته. غير أن أوريّا لم يتوجه إلى بيته، بل نام مع رجال الملك عند باب القصر. فأخبروا داود قائلين: «لم يتوجه أوريّا إلى بيته». فسأله داود: «ألم ترجع من سفر؟ فلماذا لم تمض إلى بيتك؟» فأجاب: «التابوت وجيش إسرائيل ويهوذا معسكرون فى الخيام، وكذلك سيّدى يوآب، وبقية قوّاد الملك مخيّمون فى العراء، فهل آتى أنا إلى بيتى لآكل وأشرب وأضاجع زوجتى؟ أقسم بحياتك، لن أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريّا: «امكث هنا اليوم وغدًا أطلقُكَ». فمكث أوريّا فى أورشليم ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالى. ولبى دعوة الملك، فأكل فى حضرته وشرب حتى أسكره داود. ثم خرج عند المساء ليرقد فى مضجعه إلى جوار رجال سيده، ولم يتوجه إلى بيته أيضًا.

مقتل أوريّا: وفى الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب، بعث بها مع أوريّا، جاء فيها: «اجعلوا أوريّا فى الخطوط الأولى حيث ينشب القتال الشرس، ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه». فعيّن يوآب أوريّا فى أثناء محاصرة المدينة، فى أشد جبهات القتال ضراوة، حيث احتشد أبطال الأعداء. فاندفع رجال المدينة لمحاربة يوآب فمات بعض رجال داود ومنهم أوريّا الحثّى. فبعث يوآب رسولاً ليُطلع داود على أنباء الحرب، وأوصاه قائلاً: «إن رأيت أن الملك بعد إبلاغه أنباء الحرب قد ثار غضبه وقال لك: لماذا اقتربتم من سور المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون بالسهام من فوق السور؟ من صرع أبيمالك بن يربوشث؟ ألم ترمه امرأة بحجر رحى من على السور فمات فى تاباص؟ لماذا اقتربتم من السور؟ فقل له: قد مات عبدك أوريّا الحثّى أيضا».

«**زيارة ملكة سبأ :** وعندما بلغت أخبار سليمان وإعلانه لاسم الرب مسامع ملكة سبأ، قدمت لتُلقى عليه أسئلة عسيرة، فوصلت أورشليم فى موكب عظيم جداً، وجمال مُحَمّلة بأطياب وذهب وفير وحجارة كريمة، وأسرّت إليه بكل ما فى نفسها». (سفر الملوك الأول ١٠ : ١، ٢).

. . . وعقد زيجات مع السلالات الحاكمة ـ مع العمونيين والإيدوميين والحيثيين والموآبيين والفينيقيين، الذين تزوج من أميراتهم، كذلك ابنة الفرعون، وكلها زيجات تم عقدها بقصد الإضافة إلى مجد البلاط ودعم استقرار المملكة. (Eban 1984:50-1).

كما كان سليمان ـ بطبيعة الحال ـ هو الذى بنى المعبد الأول فى القدس. لقد ربط إيبان نفسه بأعقد الحبال وهو يحاول التوفيق بين مزاعم الكتاب المقدس والبرنامج الوثنى لبناء المعبد الذى كان من الأمور النمطية فى تلك الفترة.

ويبدأ إيبان بملاحظة أن الملوك الوثنيين المحليين: مثل حيرام الفينيقى، ملك صور، كانوا يقدمون الحرفيين المهرة وقاطعى الحجارة الحاذقين ومواد البناء «وأخشاب الأرز» الشهيرة من لبنان.

ويتساءل إيبان عن المدى الذى يمكن أن نعتبر فيه هذه الاستعارات دليلاً على وجود رابطة أعمق بين ديانتى الكنعانيين والفينيقيين وديانة إسرائيل.

وإجابته مهمة جدًا لأنها تعكس الصراع بين العلم والدين داخل مجال علم الآثار الإسرائيلى، على الرغم من أنه لا يقول هذا، وهو صراع كان يتطور فى الوقت الذى كان يعمل فى كتابه ووصل إلى درجة الأزمة منذ ذلك الحين:

«ينبغى أن تكون الاختلافات فى المعتقد الدينى واضحة بما فيه الكفاية. . . كما كانت هناك أيضًا إنحرافات كبيرة فى الممارسة الدينية. فقد كانت إسرائيل. . . ممنوعة من عبادة ربها على شكل صورة، وقد كانت الأضحية البشرية، أو الدعارة فى العبادة، وطقوس الخصوبة الماجنة، كلها مستبعدة كذلك. بيد أننا يجب ألا نعمى أنفسنا عن الطرق التى كانت بها العبادة الإسرائيلية القديمة تتشابه كثيرا مع الممارسة الكنعانية بدرجة أكبر من تشابهها مع الديانة اليهودية منذ الأزمنة الرومانية».

«وأوضح استعارة ـ وأكثر انحراف صادم عن الممارسة اليهودية اللاحقة ـ يتمثل فى طقس التضحية، الذي تم تطويره بدرجة عالية منذ العصور السومرية على الأقل. إذ كانت أضحية المعبد هى مركز ديانة الدولة فى عهد سليمان، وبقيت كذلك ما دام بقى المعبد فى القدس». (Eban 1984:50)

وبالاعتراف بالانفصال بين أشكال العبادة القديمة والديانة التى تسمى اليهودية يقوض أبا إيبان الإصرار الصهيونى على وجود خط مستمر من زمن القصص الباكرة فى الكتاب المقدس حتى اليوم الحالى.

بيد أننا يجب أن نتحول الآن نحو مشكلة أكبر كثيرًا، تضرب فى صميم قلب التفسير الصهيونى للكتاب المقدس.

إسرائيل القديمة: أين كانت الكلمة؟

تحتفى الديانة اليهودية بسلطة الكلمات، وأشهرها «الوصايا العشر» التى يفترض أن موسى تلقاها من الرب فوق جبل سيناء، منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة مضت، عندما قاد العبيد العبرانيين السابقين هربًا من ربقة الأسر فى مصر، صوب «الأرض الموعودة» التى سوف تصير إسرائيل (القديمة). والعهد القديم ملىء بالكلمات المقدسة التى توفر التوجيه الروحى للشعب اليهودى باعتباره شعبًا متدينًا. وهذه، طبعًا، كلمات «مكتوبة»، ذات معنى مركب لدرجة مهولة، تقدم نظامًا شاملاً من اللاهوت والأخلاق، يستمد فى إلهام ملايين الناس في العالم الحديث. إلا أننا ما يزال علينا أن نكشف عن أية آثار للكلمات المكتوبة من فترة المملكة المتحدة التى حكمها داود وسليمان، أى إسرائيل القديمة، أقل قليلا من ثلاثة آلاف سنة مضت. وهذه هى المشكلة. إذ إن الكلمة المكتوبة علامة على تقدم المجتمع فى مجال حضارته. ويتم تصوير إسرائيل القديمة على شكل متقدم من أشكال الحضارة، ولكن أين كلماتها؟

وفقًا لفنكلشتاين وسيلبرمان، اللذين ألفا الكتاب المبهر:

The Bible Unearthed: Archaeology's New vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texsts.

لم يتم الكشف عن أثر واحد فى القرن العاشر قبل الميلاد يدل على النشاط الأدبى الإسرائيلى حتى الآن (Finkelistein and Silberman 2002:235-8).

ولأن فنكلشتاين أحد علماء الآثار البارزين فى إسرائيل الحديثة، فإن مغزى هذا بعيد الأثر. إذ إن هذا لا يعكس شيئًا أقل من الانفجار الداخلى لعلم الآثار فى إسرائيل.

إن معرفة الكتابة في العالم القديم، وحفظ السجلات، والمراسلات الإدارية، والمؤرخات الملكية، وجمع الكتب الدينية «لا سيما ما يجلب الفخر، ويتميز بالحذق، مثل الكتاب المقدس، تكون متصلة بمرحلة بعينها من التطور الاجتماعى، وتحديدًا تشكيل الدولة بديانة وعبادة دينية مركزية وملكية» (Finkelistein and Silberman 2002:22). والمغزى هو أن الفشل فى اكتشاف نشاط أدبى فى تلك الفترة يشى بأنه لم يكن هناك تكوين للدولة، أو عبادة مركزية وملكية. إلا أن معبد سليمان كان هو المجد الذى توج برنامج البناء الذى نافس برنامج الفراعنة.

فبعد عشرات السنين من الحفريات، واستخدام تفاصيل من الكتاب المقدس للبحث عن بقايا هذه المبانى، ثمة اتفاق علمى يظهر ببطء وعلى استحياء شديد بين علماء الآثار فى إسرائيل الحديثة، على أن هذه المبانى لم توجد قط، أو أن هناك بقايا المبانى، ولكن لا يمكن أن يرجع تاريخها إلى زمن سليمان:

«لقد أجريت حفريات فى القدس مرات ومرات . . . وعمل ميدانى . . . أخفق فى أن يوفر دليلاً مهمًا على الإشغال [ببناء] الذى تم فى القرن العاشر (فترة داود وسليمان). ولم يكن هناك أية علامة على بناء أثرى مفقود، بل هناك شقفات من الفخار . . . وأكثر التقديرات تفاؤلاً لهذا البرهان السلبى، هو أن القدس فى القرن العاشر كانت محدودة فى امتدادها، وربما لم تكن أكثر من قرية ريفية نمطية قائمة على أحد التلال» (Finkelistein and Silberman 2002:33). ومن المؤكد أن هناك معبدًا تم بناؤه في القدس، بعد ذلك بعدة قرون، وربما في مدينة يهوذا الصغيرة التى كانت مدينة / دولة. والواقع أن هذه حجة فرانكلشتين عن الفترة التى بدأ الكتاب المقدس نفسه فيها يتخذ الشكل المكتوب. ولكن حقيقة الأمر هى أن قصص داود وسليمان من وحى

خيـال بعض من أقـدم خيـالات العـالـم القـديم إبداعًـا (Finkelistein and Silberman 2002:123-45).

«كيف تدَّعـون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينمـا حوّلها قلم الكتـبة المخادع إلى أكذوبة؟» (إرميا، الإصحاح الثامن: ٨).

في ثمانينيات القرن العشرين، كـان الصحفي چون ماكارثي واحدًا من عدد من الأوروبيين والأمريكيين الذين احتجزهم المتشددون الإسلاميون رهائن في بيروت. وقد أدى تحمله إلى ذيوع شهرته هو ورفاقه في الأسر. وقد قرأ مكارثي الكتاب المقدس مرتين أثناء فـترة احتجازه، على الأقل لأنه كـان الكتاب الوحيد الذي كـان يسمح به الحراس لرهائنهم في سجن الإسلاميين المتشددين.

وأثارت «إسرائيل القديمة» اهتمامه، وعندما أطلق سراحه ذهب للبحث عنها، لكي يتعثر في فـرق من الأثريين الإسرائيليين، مـثل الفريق الذي كـان يقوده فرانكلشتين، الذي كان هو الآخر يبحث عن إسرائيل القديمة عبثًا. وصار مكـارثي مأخوذًا لدرجة أنه قرر إنتاج فيلم وثائقي تليفزيوني عنها: الأمر ليس كذلك بالضرورة. ولا بد أن منتجي فيلمه قـد أصـابهم الـهلع من جراء مضـمـونه الراديكالي؛ فـترة البث التي منحـوها له والتي استمر ست ساعات ونصف الساعة انحصر في فترة ضيقة بعد منتصف الليل، ولا يكاد يكون أحد قد شاهده [٧].

وثمة نكهة تدل على الأثر المدمر للفيلم الوثائقي تمثلت في الترجمة عن النبي إرميا يفتتح بها السرد في كل حلقة مدتها نصف الساعة:

«كيف تدَّعـون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينمـا حوّلها قلم الكتـبة المخادع إلى أكذوبة؟» (إرميا، الإصحاح الثامن: ٨) (Sturgis 2001:186).

وإرميا أقرب شبهًا بالفلسطينيين من حيث إنه كان صاحب تأثير ضعيف على الألفي سنة الأخيرتين، وتم استبعاده على اعتبار أنه نبي الحساب في الآخرة ـ وهو مثال آخر على الطريقة التي يهيمن بها الكتاب المقدس وانحيازاته على الخيال الحديث.

والواقع، من الممكن احـتـمـال أن إرميـا كـان شـاهدًا أمـينًا للغـاية في مـدينة يهـوذا

الصغيرة، فى الوقت الذى كانت بعض أسفار الكتاب المقدس تتخذ شكلاً مكتوبًا.

وقد وضع مكارثى مسلسله الوثائقى على أساس أعمال الأثريين الإسرائيليين مثل فرانكلشتين وزميله البروفيسور رئيف هرتزوج. وفى أكتوبر ١٩٩٩م لخص هر تزوج اكتشافاتهم فى مقالة مثيرة فى مجلة صحيفة هاآرتس الإسرائيلية (Deconstructing the Walls of Jericho', Ha'aretz Magazine 29 October 1999: 6-8).

وفى المقالة وصف هرتزوج كيف أن ما يسميه «مرحلة الأزمة» فى علم الآثار بإسرائيل نضجت فى السنوات الأخيرة. وقد وصفها باعتبارها ثورة علمية ولا أقل من ذلك. وهى عملية معروفة جيدًا لكل العلماء والباحثين الذين على ألفة بدينامية الطفرة العلمية:

«نصل إلى مرحلة الأزمة عندما تكون النظريات داخل إطار الموضوع العام عاجزة عن حل عدد كبير متزايد من حالات الشذوذ عن القياس، ويصير الشرح والتفسير عملية ثقيلة مضجرة غير متناسقة، ولا تتكامل القطع فيما بينها...

هذا ما تعلمه الأثريون من حفرياتهم فى أرض إسرائيل: لم يذهب الإسرائيليون إلى مصر أبدًا، ولم يتجولوا فى الصحراء، ولم يغزوا الأرض بحملة عسكرية ولم يسلموها إلى قبائل إسرائيل الإثنى عشرة. وربما يكون الأصعب قبوله هو حقيقة أن المملكة المتحدة التى حكمها داود وسليمان والتى يصفها الكتاب المقدس على أنها قوة إقليمية، لم تكن فى أحسن الأحوال سوى مملكة قبلية صغيرة» (Ha'aretz,29 October,1999).

وبعبارة أخرى، لم يكن هناك إبراهيم، ولا موسى، ولا يوشع؛ وكان داود وسليمان زعيمين قبليين على أحسن الفروض. ويستمر قائلاً: **«وستكون صدمة غير سارة للكثيرين أن رب إسرائيل، يهوه، كانت له قرينة أنثى...» اسمها عشيراه، وكان لها** برنامجها الخاص فى مسلسل مكارثى الوثائقى. وحسبما يشرح ماثيو ستورجيس، الذى كتب الكتاب المصاحب لمسلسل مكارثى:

«يتم تعريف عشيراه على أنها ربة كنعانية أخرى. كانت ربة للخصوبة ورفيقة معترفًا

بها للإله الرئيسى إل (وفيما بعد بعل» وقد وجـدت تماثيل كثيرة صغيرة تمثلها فى المواقع الكنعانية الباكرة.والتماثيل الصغيرة، بصدورها الكبيرة وأعضائها الجنسية المحددة جيدا، تتصل اتصالاوثيـقًا بالتماثيل التى عُثـر عليها فى المواقع الإسرائيلية اللاحـقة زمنيا. وهى علاقة قادت الباحثين إلى افتراض أن تماثيل الخصوبة الإسرائيلية ربما تمثل عشيراه أيضًا»

.(Sturgis 2001:186)

لاحظ كيف أن علم الآثار الآن مضطر إلى التخلص من الفروق المهمة بين المواقع الكنعانيـة والمواقع الإسرائيلية. ففى نقطة ما بعد الرواية الخيالية فى الكتاب المقدس المعروفة بمملكة داود وسليمان المتحدة، ربما بعد قرنين من الزمان، وبصورة تقريبية تمامًا من سنة ٨٠٠ إلى سنة ٧٠٠ ق.م، ظهرت هوية تاريخية تسمى إسرائيل، علي الرغم من أنها كانت، فى تجسدها الأول وثنية متمايزة، ولها إله وثنى هو «يهوه» وربة هى «عشيراه» والأكثر من ذلك أن القدس لم تكن مركزها الروحى.

وفى أواخر ستينيات القرن العشرين، اكتشف الأثرى بيل دڤر «عشيراه»، على شكل نقش مكتوب بالعبرية القديمة، عندما كان يقوم بحفر فى خربة الكوم بالقرب من الخليل. على سور مقبرة من العصر الحديدى المتأخر، يرجع تاريخها إلى الفترة من منتصف القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخره، اكتشف رسمًا واضحًا لما يبدو أنه مرتبط بنقش نصه: «مبارك... من يهوه... وزوجته عشيراه» ويتذكر دڤر:

«عندما اكتشفته للمرة الأولى، لم أكن حقًا أريد نشره، باعتبارى باحثًا شابًا. فقد كان مثار جدل وخلاف شديد. ولكن فى سبعينيات القرن العشرين تم اكتشاف موقع ثان على أيدى الأثريين الإسرائيليين ـ أيضًا في القرن الثامن ق.م فى سيناء. وبه نفس التعبير «ليبارك يهوه وزوجته عشيراه فلانًا» (Sturgis 2001,173).

تم هذا الكشف فى كونتيلا عجرود، فى شمال شرق سيناء. والنقش المكتوب بالحبر على جرة تخزين قديمة، كان مصحوبًا برسم لشكلين مثيرين للفضول، أحدهما ذكر بشكل واضح، والآخر أنثى، وكلاهما متوج. وحسبما يلاحظ دڤر «يبدو أن يهوه كانت له قرينة بالفعل، مثل سائر الآلهة الأخرى فى الشرق الأدنى القديم ـ على الأقل فى أذهان كثير من الإسرائيليين».

مثل سائر الآلهة الأخرى فى الشرق الأدنى القديم...

ووفقًا للحجة التى ساقها هرتزوج، فإن اكتشاف النقوش بالعبرية القديمة التى تذكر أزواجًا من الآلهة، «يهوه وعشيراه»، بعد فترة المملكة المتحدة بوقت طويل، تطرح سؤالاً مفتوحًا على اتساعه عن الوقت الذى تم فيه بالضبط اعتناق التوحيد. ويبدو محتملاً أن مملكة داود وسليمان القبلية الصغييرة، إذا ما كان لها أى وجود أصلاً، كانت تعبد آلهة وثنية متعددة.

والآن، فإن الأثريين من أمثال هرتزوج وفينكلشتين، ليست لهم عقلية سياسية على نحو خاص، ولكنهم واعون تمامًا بمغزى بحثهم بالنسبة لمزاعم إسرائيل الحديثة الأيديولوجية عن الماضى الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس.

ويقرر هرتزوج أن العامة الإسرائيلية يحاولون تجاهل الاكتشافات على الرغم من الحقيقة التى عرفوها على مدى عشرات السنين. ويستمر قائلاً:

«إن أية محاولة للتساؤل عن مدى إمكانية الاعتماد على الأوصاف الواردة فى الكتاب المقدس سوف تؤخذ على أنها محاولة لتقويض **«حقنا التاريخى فى الأرض»** وعلى أنها تحطيم لأسطورة الأمة التى تجدد مملكة إسرائيل القديمة. هذه العناصر الرمزية تشكل مكونًا حاسمًا فى بنية الهوية الإسرائيلية من الواضح أنها كانت تهديد غير محتمل ومن الأنسب أن نغمض عيوننا» (Ha'aretz, 29 October 1999).

ومدى تقدم الأثريين الإسرائيليين من أمثال هرتزوج وفينكلشتين الآن فى شرح أصول الكتاب المقدس أمر يخرج عن مجال هذا الكتاب (٨)، بيد أن هناك سخرية مثيرة تستحق المزيد من التعليق. فإنهم يجادلون بأن إسرائيل القديمة «الحقيقية» كانت دولة وثنية، وكانت السامرة «عاصمتها» أو مركزها الروحى. وسوف يعتاد القراء على الزعم الصهيونى الحديث عن يهودا والسامرة (الضفة الغربية) فى أرض فلسطين. وما هو معروف بدرجة أقل، الحرب المتفجرة المريرة بين يهودا والسامرة، أو بين يهودا وإسرائيل، إذا ما استخدمنا الأسماء الواردة فى الكتاب المقدس.

ويجادل هرتزوج وفينكلشتاين: هذا العداء [بين يهودا والسامرة] هو الذى أرسى جزئيًا الأساس الذي قامت عليه قصص الكتاب المقدس والميلاد الحقيقى للديانة

اليهودية. إنها الحرب التى انتصرت فيها يهودا فى نهاية المطاف. أما السامرة (إسرائيل القديمة الحقيقية) فقد باتت منبوذة. وبحلول القرن الميلادى الأول، كانت السامرة بمعبدها الخاص بعيداً جداً عن القدس ووطنًا للسامرى الطيب المشهور فى الإنجيل، لا تعتبر يهودية حقًا فى رأى الأحبار اليهود فى معبد **القدس بيهودا**. وبعبارة أخرى، منذ ألفى سنة، فى القرن الذى شهد التمرد اليهودى الكبير ضد روما، لم تكن إسرائيل القديمة «الحقيقية» تُعتبر يهودية.

فى الفصل التالى سوف نكتشف المغزى المدمر لهذه المزاعم الصهيونية الحديثة فى فلسطين، عندما ننظر إلى الشتات اليهودى فى الإمبراطورية الرومانية. ولكن لا ينبغى لنا أن نترك هذا الفصل قبل أن نسدى احترامنا للكُتّاب العظام الذين كتبوا الكتاب المقدس فى العصور القديمة. ومن المؤكد تمامًا أن الكتاب المقدس ليس تكليفًا لمزاعم الشوفينية اليهودية الحديثة على أرض فلسطين، ولكن، يمكننا أن نتفق مع فرانكلشتين وسيلبرمان، بالتأكيد على أنه:

«كتاب مقدس فيه عبقرية أدبية وروحية لا تبارى... وهو ملحمة بطولية شعبية نُسجت سويًا من مجموعة ثرية بشكل مدهش من الكتابات التاريخية، والذكريات، والخرافات، والحكايات الشعبية، والقصص والدعاية الملكية [٩]، والنبوءة والشعر القديم... والقطعة الأدبية الفذة سوف تمر بالمزيد من التحوير والتوسع (لدرجة أنها ستصير) مرساة روحية...للجماعات فى جميع أنحاء العالم..»
. (Finkelstein and Silberman2002:1-2)

***